في الجبَّانة

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازني

قالت لي أمي — رحمها الله — مرة :

« ألا تنوي أن تزور أباك في هذا الموسم ؟ »

وكنا قد أوشكنا أن ندخل في رجب ، وكانت حريصة على زيارة موتاها في كل موسم ، بل في كل خميس وجمعة ، لا تهمل منهم أحـداً ، فتطوف بهم جميعاً وتقرأ لهم الفواتح ، ولا تأكل فاكهة جديدة حتى « تفرّق » منها على قبورهم ، وكان ذلك يثقل عليّ ، ولـكني كنت أكلها إلى رأيها فيه ، إيثاراً لمرضاتها

فقلت — بلهجة من ضاق صدره — : « كيف أزوره وهو ميت وأنا حيّ ، وهو تحت الأرض وأنا فوقها ، فلا يسمع مني ولا يراني ولا يحسني ؟ »

فقالت : « إني أراك مغتراً بالحياة ومعتزاً بها ، ولا أستحسن لك هذا » ولم تزد ، فأقصرتُ أنا أيضاً وقد شعرت أني آلمتها بسخافتي وحماقتي ، وكرت الأيام ، فما يقف الدهر ، وماتت — كما يموت كل حي — فـكان أوجع لي من موتها أنها ذهبت وهي موقنة أني لن أزور قبرها ، وكأنما أردت أن أغالط نفسي فيما تحسه من الوخز والندم ، فجعلت أزورها من حين إلى حين ، ولـكني كنت أتسلل كاللص ، وأتخير أوقاتاً غير أوقات الزيارة المألوفة ، فلا يعلم بذلك أحد ، ولا يراني مخلوق ، ثم كففت لأني أنـكرت هذا كله من نفسي ، وكبر عليّ أن أذهب إلى المقابر على رجليّ ، وقلت لنفسي : « إذا كان المراد بالزيارة الذكر ، فانها به أبدا بين العين والقلب ، وإذا كان صحيحاً ما يقال من أن الميت يموت مرة أخرى كلما نسيه واحد من الأحياء ، فاني لن أجني ميتة جديدة على أمي ما دمت حيا »

ولم يفتر ندمي مع ذلك ، فظل دائراً في نفسي ، فتشددت ، وحملت نفسي على مكروهها ، ومضيت إلى قبرها في ليلة سوداء — أعني مظلمة — وفتحت الباب ودخلت القبرة وقلت « السلام عليكم » كأنما أردت أن أونس نفسي بصوتي في هذه الوحشة ، فما راعني إلا صوت يقول : « وعليكم السلام ! من تراك تـكون ؟ »

فذعرت ، وهممت بالجري ، ولـكني استحييت ، فما يمكن أن يرد السلامَ غيرُ حيّ ، ولعله مسكين أوى إلى هـذا المكان الموحش من الفاقة ، وما أكثر من رأيتهم يفعلون ذلك ! فما خوفي من رجل يقول : « وعليكم السلام » ؟؟ ولو كان امرأ سوء لاستخفى ، فتشجعت وأدرت عيني في المكان فلم تأخـذ شيئاً في هذا السواد ، فقلت :

« من عساك تـكون أنت يا صاحبي ؟ »

فقال الصوت : « وما سؤالك هـذا ؟ لن تعرفني على كل حال . فاني قديم — قديم ، ولـكن تعال ساعدني واحتقب شكري »

فدنوت منه — أعني من مصـدر الصوت — وسألت :

« على أي شيء تريد أن أساعدك ؟ »

قال : « على حمل هذا الحجر — فقد وهن عظمي جداً »

قلت : « ولماذا تريد أن تحمله ؟ دعه حيث هو ، فانه من حجارة المقبرة وليس لأحد أن يزحزحها عن مكانها أو ينقلها »

قال : « انك ممذور »

قلت : « كيف ؟ ماذا تعني ؟ »

وكلما تناولت أمامي شيئاً أو صنعت شيئاً خلقت معه شيئاً ؛
أشياؤها لا تزيد بها الطبيعة ، ولـكن تزيد بها النفس
فيا كَبِداً طارت صُدُوعاً من الأسى . . . !

***

ورأيتني يومئذ في حالة كغشيةِ الوحي ، فوقها الآدميةُ ساكنة ، وتحتها تيارُ الملائكةِ يَعُبُّ ويجري

***

يا سِحْرَ الحب ! تركتني أرى وجهها من بَعدُ هو الوجهَ الذي تضحكُ به الدنيا وتعبسُ وتتغيظ وتتحامق أيضاً . . .

وجعلتني أرى تلك الابتسامةَ الجميلة هي أقوى حكومةٍ في الأرض . . . . !

وجعلتني يا سحر الحب ؛ وجعلتني يا سحر الحب مجنوناً . . . !

(طبق الأصل) (طنطا) [illegible]

قال : « هذا قبرى . وهـــذا من سُواه – عليه اسمى مكتوباً . . . تستطيع أن تقرأه إذا شئت »

فكان من دواعى عجبى بعد ذلك انى لم أذعر ولم أولّ هارباً ، بل أقبلت عليه أسأله وأستخبره فقال :

« لقد هجرنا جميعاً هذه المقبرة المهملة – لم يبق لنا فيها مقام . وكيف المقام فى قبور متهدمة ؟؟ لقد كانت جديدة حسنة البناء يوم جئنا ، وكان أهلنا – الباقون منا على قيد الحياة – يعنون بها ويرشون أرضها بالماء ويحملون إليها الزهر والرياحين ، فكان نشرها يفوح ويتضوع ، فاذا جن الليل خرجنا من القبور مسرورين وأقبلنا عليها نشمها وننعم بشذاها ، وكان القراء يتلون على أجداثنا القرآن فيندى على قلوبنا وترف له نفوسنا ونحس أن عظامنا قد طريت . أما الآن . . . ! ؟ لا ياصاحبى ، لم تعد هذه المقبرة صالحة للاقامة ! وقد هجرناها ، وجمع كل منا كفنه وحمل من له حجر حجره ، ورحلنا ، وكيف كان يسعنا غير ذلك ؟ انها لم تعد جبانة . . . . هــذه هى مساكن الأحياء أراها من مكانى هنا . . . فهل هذه مقبرة ؟ لقد زحف الناس ببناهم وغزوا أرضنا وجاروا علينا ، وجاورونا ، فبالله كيف نطيق جوارهم ؟ كيف نحتمل لغطهم وضجاتهم التى لا تنتهى ؟ ما عسى صبرنا على حركاتهم التى لا يعقبها سكون ؟ ؟ لكأنا ما متنا ولا استرحنا إذن ! ؟ وأقول لك الحق لقد بدأنا نأسف على أنّا متنا . . . لا ياصاحبى ، لم تبق هذه الأرض للموتى ، ولم يعد ثم مفر من الرحيل عنها . . . لقد تعبنا جداً هنا واضطررنا إلى مالم يكن لنا فى حساب . ومن لطف الله بنا أن هــذه البلاد قليلة المطر ، ومع ذلك كنا إذا أمطرت ينفذ إلينا الماء من سوء حال القبور ، وتبتل أكفاننا فنضطر إلى الخروج ونشرها بين أيدينا أو على هــذا السور حتى تجف وتعود صالحة للبس . وعلى ذكر ذلك أقول إنى لا أدرى ماذا جرى للدنيا ؟ لقد كانت حفيدة لى مدفونة هنا ، وكان عليها كفن من الحرير الغالى ، فسرقه لص ! تصور هــذا ؟ ولا أعلم هل سرقه واحــد من الأحياء ، أو تغفلتها ميتة أخرى وسرقته ؟ فان كان السارق من الموتى فلابد أن يكون من جيراننا فما فى أسرتنا هذا السوء . وقد شكت إلى ماصارت إليه من العرى ، فلم أدر أول الأمر ماذا أصنع ؟ وكيف أكسوها ؟ وخطر لى أن أنتظر حتى يجيئنا ميت جديد ، أو يموت ابنها فآخذ من كفنه لها ، فان الميت الجديد يلف فى أكثر مما يحتاج إليه ، ولكنه لم يمت مع الأسف ، فلم أجد حيلة إلا أن أجملها دقة بدقة ، والبادى أظلم ، فذهبت أرتاد هــذه الجبانة حتى رأيت كفناً من الحرير لا أشك فى أنه الكفن المسروق ، فجئتها بشق منه وتركت شقاً »

وضحك – أعنى أنه أخرج صوتاً سألته عنه لأنى حسبته كلاماً فقال إنه كان يضحك ، فسرت فى بدنى رعدة ، واستأذنته فى الانصراف

فقال : « ألا تعيننى ؟ إن الحجر ثقيل ، وأنا هرم ، وقد فتر نشاطى من طول الرقاد »

فتناولت الحجر من ناحيــة ، وتناوله من طرفه الآخر ، ووضعناه معاً على ظهره ، وذهب يخطو ، وكانت عظامه تقرقع وهو يمشى ، فلما بلغ الباب سألته :

« ألم يبق هنا أحد منكم ؟ »

قال : « لا . . ماذا نصنع هنا ؟ كلا . ليبن فوقها الأحياء إذا شاءوا »

قلت : « وأين ذهبتم ، فقد نحب أن نزوركم »

قال : « أين ذهبنا ؟ وأين تنتظر أن نذهب ؟ انتشرنا فى فضاء الله ، فان أرضه ما زالت واسعة ، ولن نعدم فيها منأى عن مساكن الأحياء . . . وعلى ذكر ذلك أسألك : ألستم تموتون فى هذه الأيام ؟ »

قلت : « ياله من سؤال ؟ كيف لا نموت ؟ »

قال : لماذا إذن هذا الزحف علينا كأن الدنيا تضيق بكم وكأنكم تزيدون ولا تنقصون ؟ لماذا لا يكفيكم ما كان يكفينا ؟ كل الجبانات المشهورة صارت أحياء عامرة بالسكان فكيف هذا ؟ »

فسألته : « وجلا عنها الموتى ؟ »

قال : « بالطبع ! وهل يمكن أن يحتملوا الناس ؟ إذن لماذا ماتوا ؟ »

قلت : « هل تفزعكم الحياة الى هذا الحد ؟ »

قال : « كما يفزعكم الموت – كلا . لا يطيق الحياة من نجا منها . . . والآن عم مساء يا صاحبى ! هل لك فى مرافقتى ؟ لا ؟ لا بأس ! لا بأس ! كل شىء مرهون بوقته . . . »

فلم أطق أكثر من ذلك ، وخرجت من الجبانة أعدو . . .

ابراهيم عبد القادر المازنى